الخاتمة

وإنه يجدر بنا في ختام هذه الجولة الماتعة في حدائق الرشيد الغنَّاء أن نبيِّن بعضًا من الحقائق الهامة، ومنها:

أولا: لم يكن العصر العباسي عصر جمود للفتوح على نحو ما يذهب بعض الدارسين، فقد اندفع العباسيون في تيار الفتح بنفس قوة الأمويين، ويكفي أن نشير إلى ما أحرزوه من نصر في بلاد ما وراء النهر، وفي جهادهم المتواصل ضد الإمبراطورية البيزنطية صيفًا وشتاءً، وفتح الرشيد هرقلة وولده المعتصم عمورية، وكذلك هزيمة العباسيين للصين وقضائهم على تدخلهم في أحوال الترك.

ثانيًا: استنتج بعض المؤرخين من كون هارون الرشيد عهد لإبراهيم بن الأغلب بالحكم الذاتي والاستقلال بالمغرب الأدنى- تونس أو إمارة إفريقية، وأن تظل باقية قي ولده من بعده، أن ذلك بداية الانحطاط والضعف في الدولة العباسية، وهذا زعم كاذب لا دليل عليه، بل التاريخ يكذبه، فمنح الرشيد لابن الأغلب الحكم الذاتي بتونس كان له أسبابه الوجيهة والنابعة من السياسة التي اتبعها الرشيد في مثل الأقطار البعيدة عن السلطة المركزية في بغداد، كإمارات المغرب العربي، فقد أخذت دولة الرشيد تعهد إلى من تتوسم بهم الكفاية والقدرة على ضبط الأمور وحفظ الأمن، فتعهد إليهم بالولاية وتجعلها باقية فيهم، وهو ما كان مع بني الأغلب، مقابل ضريبة يدفعونها إلى بيت مال الخلافة تقدَّر بأربعين ألف دينار في كل سنة. وهناك سبب آخر أن الرشيد أراد أن يتفرغ من مشاكله في بلاد المغرب إلى التوسع في الفتوحات في المشرق وقمع الثورات المتلاحقة هناك، وكذلك لانشغاله في جهاد البيزنطيين ورد غاراتهم - وكانت تلك الحملات على

الدوام. وقد كانت تلك السياسة الحكيمة من الرشيد سببًا واضحًا في الاستقرار النسبي في إفريقية، حيث ظل الأغالبة حائط الصدِّ أمام الإمارات التي قامت في المغرب والأندلس من خوارج وأدارسة وأمويين، كما استطاعوا أن يفتحوا صقلية ومالطة، وأن يقيموا حضارة عظيمة في تونس، مازالت آثارها خالدة إلى الآن.

ولنتساءل: كيف تكون أيام الرشيد بداية انحطاط دولة بني العباس وقد جاء عقبه ولده المأمون ذلكم الخليفة العالم (198هـ - 218هـ) الذي كانت ملوك وأباطرة الدنيا يقدِّمون له فروض الطاعة، ويبعثون له بالهدايا استرضاءً، وبلغت الحضارة الإسلامية في عهده ما فاقت عهد أبيه. ثم جاء من بعده المعتصم (218هـ - 227هـ)، صاحب النداء الشهير في الإسلام (وا معتصماه)، والذي به فتح عمورية (223هـ/ 838م)، تلك التي لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام، وهي عين النصرانية وبنكها، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية، كما قال الطبري.

ثالثًا: أن بغداد الرشيد هي بغداد العلم والحضارة والتقدم، إن العلم هو السلاح الذي تنتصر به الأمم وتبنى به الحضارات، وهذه الحقيقة فقهها هارون الرشيد جيدًا، فطبقها في دولته واستقدم العلماء وبنى لهم أول جامعة علمية إسلامية وأجرى لعلمائها الأرزاق، حتى غدت بغداد كعبة العلم والعلماء يحج إليها طلاب المعرفة من كل حدب وصوب.

رابعًا: تبيَّن لنا من سمو الرشيد وأخلاقه مدى التسامح الإسلامي، وهو أعظم ملوك الدنيا عندئذ، وهو يضع عالمًا نصرانيًا على رأس أهم مؤسسة علمية في دولته؟! هو يوحنا بن ماسويه، وكان نصراني الديانة سريانيًّا، جعله على رأس بيت الحكمة أول جامعة علمية أكاديمية في التاريخ. بل وصل تسامح هارون الرشيد أن وضع كلَّ ثقته في أشهر الأطباء النصارى وهو بختيشوع الطبيب وابنه جبرائيل بن بختيشوع، جعلهما أمناء على حياته الشخصية، مع اختلاف الدين بينهما. ولا

عجب في ذلك، فما حفظ للنصارى وغيرهم من الأقليات الغير المسلمة حقوقهم بمثل المسلمين، وما تمتعوا بكامل حريتهم سوى داخل الدولة الإسلامية، وذلك مبدأ من مبادئ الإسلام: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8].

خامسًا: إننا نستطيع أن نقول وبكل ثقة: إن عصر هـارون الرشيد هـو العصر الذهبي للخلافة الإسلامية قوة واتساعًا وحضارة، وغرة في جبينها، فلقد كان الرشيد درة التاج العباسي، وأحد عظماء الملوك في التاريخ[1]، فعلى الرغم من كثرة متاعب الخلافة وأعباء الملك، إلا أن ذلك كله لم يلهه عن العلم والفن، كذلك لم يلهه ولعه بالعلم والفن تصريف شئون الدولة وإدارة أحوال الرعية، وهذا وجه من عظمة الرشيد، وهي العظمة التي شهدها له ول ديورانت في كتابه قصة الحضارة بقوله: «ولسنا نعلم في التاريخ كله أن حاشية للملوك قد جمعت مثل ما جمعت حاشية الرشيد من ذوي العقول الراجحة النابهين. وكان يعاصره في غير بلاد الإسلام الإمبراطورة إيرينة في القسطنطينية، والملك شارلمان في فرنسا، ومن قبله بزمن قليل كان يجلس على عرش بلاد الصين تسوان دزونج Tsuan Tsung، ولكن هـارون الرشيد بزهم جميعًا في الثراء، والسلطان، وأبهة الملك، والتقدم الثقافي الذي ازدان به حكمه»[2].

سادسًا: لا بد أن نؤمن أن الرشيد رحمه الله بشرًا، وطبيعة البشر الخطأ والصواب، فليس الرشيد بمعصوم عن الخطأ هـنا أو التقصير في أمر هـناك، وهذه مسلمة تجعلنا نستريح كثيرًا في تناولنا لسيرة العظماء في تاريخنا، فليس أحد بمعصوم غير رسولنا ﷺ، غير ما تناولته كتب الأدب والمحاضرات حول سيرة الرشيد اللاهي العابث الماجن، تجعلنا نتوقف عندها كثيرًا، خاصة ما كُتب عنه في

(1) أحمد معمور العسيري: موجز التاريخ الإسلامي، الناشر، مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة الأولى: 1417 هـ - 1996م، ص 186.

(2) ول ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة: زكي نجيب محمُود وآخرين، 13/ 92.

حكايات ألف ليلة وليلة وكتاب الأغاني وغيرهما.

فأما كتاب ألف ليلة وليلة، فهي مجموعة من القصص الشعبي، ذكر المسعودي (ت: 346هـ) وابن النديم (ت: 438هـ) أنها مترجمة عن أصل فارسي اسمه (هزار أفسان أو هـزار أفسانة)، وهذا الأصل غير موجود، مما يجعلنا نشكك أولًا في صحة ما يقال فيها عن الرشيد.

وألف ليلة وليلة أخذها العرب من الأدب الفارسي والهندي، ومادتها والأسماء الواردة فيها تدل على ذلك، وقد نقلت إلى العربية في القرن الثالث الهجري، وقد قام المستشرق الفرنسي أنطوان جالان (1056 - 1127هـ/ 1646 - 1715م) بنقلها، فانتشرت في أوروبا ومنها إلى العالم أجمع.

والغريب أنه ذُكرت بعضٌ من قصص الرشيد ضمن حكايات ألف ليلة وليلة، فظن بعضهم أنها كتبت بعد أيامه بفترة قصيرة، وهذا غير صحيح كما تقدَّم. لقد شوَّهت هـذه الحكايات سيرة الرشيد كذبًا وخيالًا، وسطَّرت حوله الخرافات والأساطير، وكأن الأوروبيين وغيرهم ظنوا أن الرَّفاه في قصر الرشيد لا يمكن أن يكون إلا كما كان في قصر شارلمان من شراب وفسق وفجور، فجعلوا الرشيد بطلًا لرواياتهم وبصورة تشبه ما يجري في قصورهم، مع أن الرشيد لم يسمع عن حكايات ألف ليلة وليلة؛ لأنها ترجمت في القرن الثالث الهجري وقد عاش هـو في القرن الثاني الهجري، وتدل قصص ألف ليلة وليلة أنها مؤلَّفة من قبل عديدين أضافوا إليها حتى العصر المملوكي[1].

وأما كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (ت 356هـ)، فهو من الكتب التي مُلئت بالزور والبهتان وألصقت بالرشيد كل نقيصة في دينه وشرفه وعفَّته، وخاصة أخباره مع أبي نواس. غير أن هـناك جملة من الحقائق حول الكتاب ومؤلفه تنسف

(1) انظر: المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 2/ 201. ابن النديم: الفهرست، 1/ 369. شوقي أبو خليل: هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، ص201 - 203.

كل ما جاء فيه عن أخبار الرشيد المزورة. فمؤلف الأغاني بمنظار الثقات ينتهي نسبه إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وذلك ما أجمع عليه معرِّفوه، وهو شيعي المذهب بشهادتهم، وبذلك يجمع بين النقيضين، التشيع للبيت العلوي والنسب إلى البيت الأموي. فضلًا عن أنه كان شعوبيًا، امتلأ قلبه بالحقد اللاهب على كل ماهـو عربي أو إسلامي، فجَّرها في عقلَيْهِ الظاهرِ والباطن انهيارُ السلطان الأموي، الذي حرمه فرص التمتع بعزة الملك، الذي كان من الطبيعي أن يكون أحد ورثائه الأقربين لو قُيِّض لأبيه – آخر خلفاء بني أمية – الانتصار على خصومه.

وقد تباينت آراء العلماء في شخصية الأصفهاني، فمع اتفاقهم على توكيد مكانته الثقافية يختلفون في قيمته الذاتية، ففي رأي الثعالبي أبي منصور أنه من أعيان أدباء بغداد وأفراد مصنفيها وشعرائها، وكذلك قال فيه ابن خلكان في وفيات الأعيان. ومقابل ذلك يقول الإمام ابن الجوزي "إن مثله لا يوثق بروايته التي تحتوي ما يوجب تفسيقه، وهو يشرب الخمر وفي أغانيه كل قبيح ومنكر.."، ويروي الإِمام الذهبي عن شيخ الإِسلام ابن تيمية أنه يضعِّفه ويتهمه في نقله ويستهول ما يأتي به. وقال عنه الخطيب البغدادي: "كان أبو الفرج الأصفهاني أكذب الناس"، وقال عنه ياقوت الحموي: " وكان أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني وسِخًا قذِرًا لم يغسل له ثوبًا منذ فصَّله إلى أن قطَّعه». وقال فيه الذهبي في ميزان الاعتدال: «شيعي، وهذا نادر في أموي. كان إليه المنتهى في معرفة الأخبار وأيام الناس، والشعر والغناء والمحاضرات، يأتي بأعاجيب بحدثنا وأخبرنا».

ومن يتأمل كتاب الأغاني يجد أن المؤلف صبَّ جل اهتمامه على الجانب اللاهي من بيئة الرشيد وغواة عصره، حتى ليخيل لقصار البصيرة أن المجون هـو اللون الوحيد الذي تميزت به تلك الحقبة، على حين أن ما خلص إلينا من مؤلفات الثقات تشهد بأن المجون لا يعدو النسبة الضئيلة من النشاط الجاد الذي يميزها فيجعلها أزهى عصور الحضارة الإسلامية الحافلة بأيمة المذاهب وأقطاب

الزهد، وأساطين العربية، وعمالقة الفكر العالمي، الذين أمدوا العالم كله بالأشعة التي بددت الظلمات وفجرت ينابيع المعرفة، وكانت وراء كل التطورات العلمية الحديثة. لقد كان أبو الفرج من أوسع الناس علمًا بأحوال عصره، ولابد أن يكون قد علم يقينًا ما أجمع عليه مؤرخوا تلك الأيام من أن مجالس الرشيد كانت تضم الصفوة من أساطين العلماء وعمالقة اللغة والأدب.

فماله يضرب صفحًا عن ذكر هـذه القمم، ويقصر نظره على ذلك الجانب اللاهي الذي يقتصر على أمثال الموصليَّين وابن جامع والزف ومخارق وبرصوما وزلزل وبقية الشلة من صعاليك المغنين والزمارين والطبالين!!.

لماذا اختار لنفسه مسلك الذبابة التي لا يستهويها سوى القمامة فلا تعير الطيبات أي اهتمام!!. ألم يكن من حق الأدب والعلم والتاريخ على مؤلف الأغاني أن يفسح ولو فرجة صغيرة من كتابه لإعطاء القارئ فرصة الإطلال على الجميل النظيف من بيئة الرشيد؟!.

إن من يتأمل كتاب الأغاني للأصفهاني يرى حياة العباسيين لهوًا ومجونًا وخلاعة، وهذا ما يناسب المؤلف وخياله ومجونه، وما حوله، وهذه بلا ريب صورة مرفوضة؛ لأن المؤلف يأتي بالأعاجيب بحدثنا وأخبرنا[1].

وأما عن علاقة الرشيد بأبي نواس، فقد فصَّلنا فيها القول عند حديثنا حول الأدب في عهد هـارون الرشيد[2]، وتبيَّن أن ما ذكره كتاب الأغاني عن هـذه العلاقة التي يجمعها الخمر والمجون هـي من محض الكذب والافتراء، وان الكثير من هـذه الأشعار انتحلت على أبي نواس فيما بعد.

سابعًا: ذهب بعض من كتب عن هـارون الرشيد إلى أنه ذو شخصيتين، ومنهم

(1) انظر تفاصيل ذلك في: محمد مصطفى المجذوب: جولة في كتابي (الأغاني) و(السيف اليماني)، ص425 – 434. بتصرف.

(2) انظر الباب الأول – الفصل الثامن الخاص بالحياة العلمية، خامسًا: الأدب في عهد الرشيد.

أحمد أمين في كتابه (هارون الرشيد)، فقد ذهب إلى أن الرشيد كان جادًا لاهيًا، تثور عاطفته الدينية أحيانًا، فيصلي مائة ركعة ويبكي ويحج ماشيًا، وتثور عاطفته الدنيوية أحيانًا، فيسمع الغناء ويشرب الشراب، وتثور عاطفته الحربية فيتولي قيادة الصائفة والشاتية[1]. وتابعه في ذلك الشيخ علي الطنطاوي في كتابه رجال من التاريخ، فقد جعل للرشيد مقالًا تحت عنوان (أكبر ملوك الأرض)، أورد فيه بمثل ما أورده أحمد أمين، وأرجع ذلك- حسب استخلاصه - إلى عقدة نفسية فيه، فلم يستطع الرشيد أن يوفق بين صلاحه وتقواه، وبين رغباته ولذاته[2].

أما ما قاله أحمد أمين من تناقض الرشيد في عواطفه، فهذا غير صحيح، فالمتتبع لسيرة الرشيد يجده متزنًا في عواطفه، مستقيمًا في أحواله، يجلس إلى العلماء والفقهاء ويسمع منهم، وكانوا عنده في محل إكرام وتقدير، وكان كما وصفه يزيد بن مزيد الشيباني، «فقد جعلك الله وله الحمد، تتثبت تحرجًا عند الغضب، وتتطول ممتنا بالنعم، وتعفو عن المسيء تفضلًا بالعفو»[3]. والمتبع لسيرة الرشيد يجد انضباطه بموجب الشرع والدين، وإن ما ذكرناه عن أخلاقه وعبادته وأدبه وحسن سيرته وجهاده، كفيلًا بالرد على هـذه التهمة ورد افتراءاتها.

وأما ما ذكره الشيخ علي الطنطاوي، فإنه مما يؤسف له؛ إذ كيف ينجر رحمه الله لما يقوله المستشرقون والمستغربون مع سعة علمه ودينه، فضلًا على أنه لم يأت بدليل واحد على ما قاله، وقد فصَّلنا القول وأوضحناه ورددنا على شبهة تحالف الرشيد مع شارلمان ضد ابن عمه عبد الرحمن الداخل، وكذلك شبهة الغناء والموسيقى وشربه الخمر وملاعبة القيان!.

ثامنًا: لماذا هـارون الرشيد بالذات؟ والإجابة بالتأكيد؛ لأن عصر الرشيد هـو

(1) أحمد أمين: هارون الرشيد، ص187 - 18.

(2) علي الطنطاوي: رجال من التاريخ، 1/ 120 - 121.

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 353.

واسطة العقد للحضارة الإسلامية، وقمة المجد والعزة التي وصلت إليها دولة الإسلام على مر العصور. وبما أن هـؤلاء المستشرقون ومن تبعهم لا يجرؤون على الطعن في الإسلام مباشرة؛ إذ ستكون ردة فعل المسلمين عليهم عنيفة وقوية، فقد لجأوا إلى الطعن والتشويه في رموزه وقادته وبناة حضارته، فطعنوا في عثمان بن عفان رضي الله عنه، وطعنوا في سيرة السلطان سليمان القانوني وعبد الحميد الثاني، وها هـم يطعنون في هـارون الرشيد، وقد أرادوا أن يطعنوا في الإسلام وحضارته.

وما أحوج أمتنا الآن إلى رجال عظام أمثال هـارون الرشيد، يعيدون للأمة مجدها وعزتها وحضاراتها، وصدق الشاعر محمود غنيم بقوله:

أين الرشيد وقد طاف الغمام به ... فحين جاوز بغدادًا تحداه؟

ملْكٌ كمُلك بني التاميز ما غَرَبت ... شمسٌ عليه، ولا برقٌ تخطاه

ماضٍ تعيش على أنقاضه أَمَمٌ ... وتستمدُّ القوى من وحي ذكراه

رختانًا..

لا شك أن هـناك الكثير والكثير مما كان يجب علينا إضافته، ولكن هـذا جهد المقلِّ، عسانا نكون قد وفينا بعض حق الرشيد علينا. وعذرنا أننا بشر، وأعمال البشر لا تصل للكمال بل يعتريها النقصان. ولله در القاضي الفاضل حيث قال: «إني رأيت أن لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلا قال في غده: لو غير هـذا كان أحسن، ولو زِيد كذا لكان يستحسن، لو قُدِّم هـذا لكان أفضل، ولو تُرك هـذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر ودليل على استيلاء النقص على جملة البشر»[1].

(1) صديق خان القنوجي: أبجد العلوم، ص52.

الملاحق

دينار هـارون الرشيد ضرب بمدينة السلام عام 184هـ

دينار هـارون الرشيد – ضرب عام 184هـ

دينار هـارون الرشيد – ضرب بمدينة السلام عام 188هـ

الدول المستقلة عن دولة الرشيد

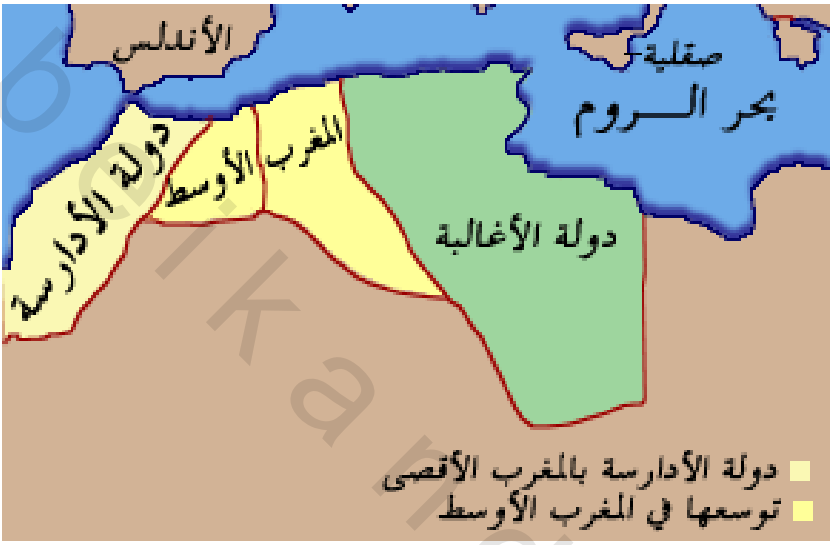

obeikandl.com

صفحة من مخطوطة كتاب الخواص الكبير لجابر بن حيان

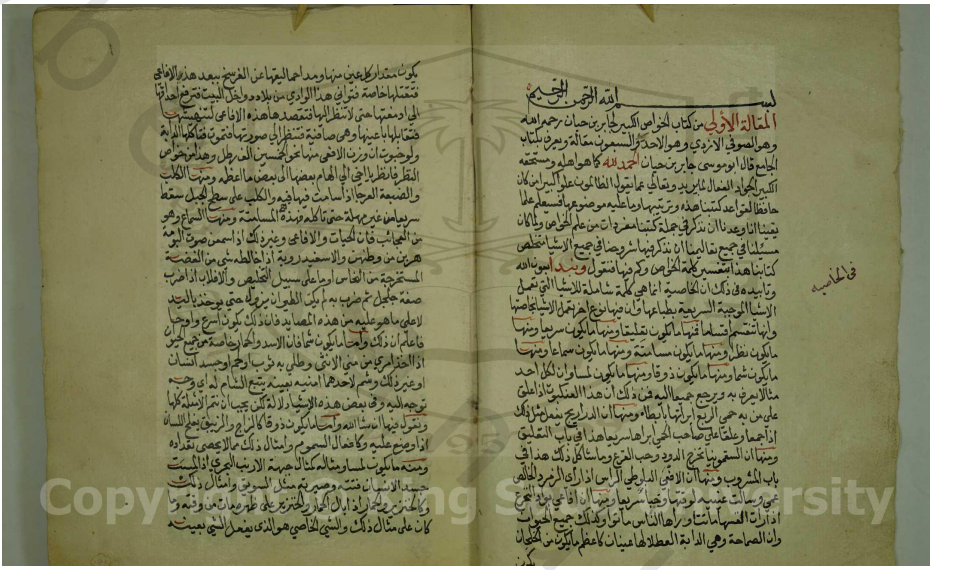

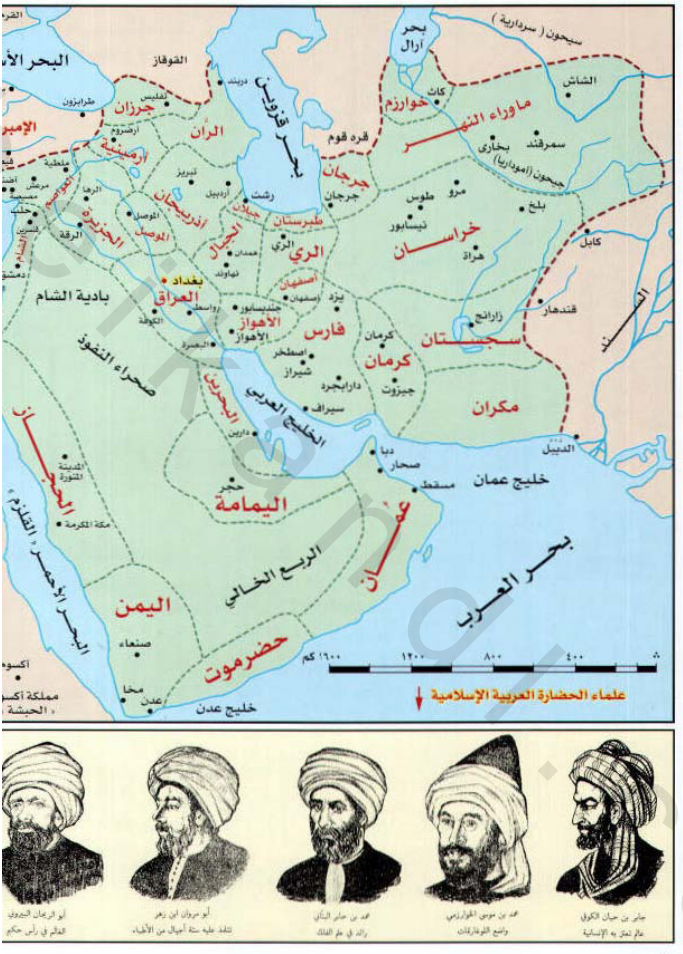
البحر الأسود
القوقاز
بحر قزوين
بحر آرال
سيحون (سرداريا)
الشاش
خوارزم
ماوراء النهر
سمرقند
بخارى
جيحون (أمودريا)
بلخ
مرو
طوس
نيسابور
خراسان
هراة
كابل
قندهار
زرانج
سجستان
مكران
الديبل
الرى
طبرستان
جرجان
قزوين
زنجان
أذربيجان
الموصل
الجزيرة
الرقة
بغداد
العراق
بادية الشام
الكوفة
البصرة
واسط
الأهواز
فارس
كرمان
شيراز
داراب جرد
جيرفت
سيراف
الخليج العربي
البحرين
هجر
اليمامة
مكة المكرمة
المدينة المنورة
البحر الأحمر
صحراء النفوذ
الربع الخالي
اليمن
صنعاء
حضرموت
عدن
خليج عدن
مملكة أكسوم
الحبشة
عمان
خليج عمان
مسقط
صحار
دبا
الأهواز
همذان
أصفهان
يزد
الري
قم
كاشان
نهاوند
تبريز
أردبيل
رشت
ديلمان
ملطية
مرعش
حلب
دمشق
الفرات
دجلة
أرضروم
طرابزون
تفليس
جرزان
الران
الإمبراطورية البيزنطية
٠ ٤٠٠ ٨٠٠ ١٢٠٠ ١٩٠٠ كم
علماء الحضارة العربية الإسلامية
أبو الريحان البيروني
العالم في رأس حكيم
أبو مروان ابن زهر
تتلمذ عليه ستة أجيال من الأطباء
محمد بن جابر البتاني
رائد في علم الفلك
محمد بن موسى الخوارزمي
واضع اللوغاريتمات
جابر بن حيان الكوفي
عالم نعتز به الإنسانية

٤٨

من كتاب الدكتور شوقي أبو خليل: أطلس التاريخ العربي الإسلامي، دار الفكر- دمشق، الطبعة الخامسة 2002م - الإعادة الثانية عشر 2005م، ص48 - 49.

من كتاب الدكتور حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى 1987م، ص149.

الدولة العباسية في عهد هـارون الرشيد (170هـ - 193هـ)

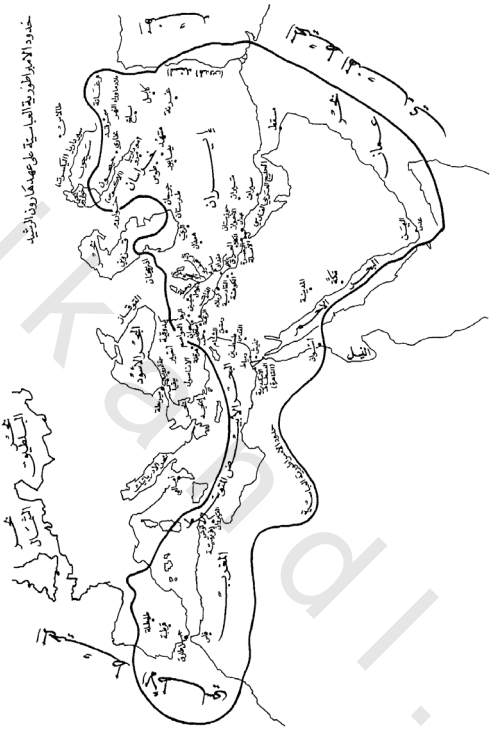

حدود الإمبراطورية العباسية على عهد هـارون الرشيد. من كتاب المؤرخ الفرنسي أندري كلو: هـارون الرشيد وعصره، ص394.

obeikandl.com